المحاضرة الثانية: الهجـرة والتهجـير

تمهيـد:

تعتبر حركة الهجرة، التي جسدتها الجماعات السكانية من مختلف مناطق القطر الجزائري، ظاهرة أفرزتها جملة من العوامل التي خلفتها الإجراءات والقوانين الفرنسية التعسفية. فالهجرة ظاهرة قديمة تتمثل في انتقال الأفراد والجماعات من منطقة إلى أخرى سعيا وراء العيش والأمن... فما هو مفهوم الهجرة الجزائرية وأهم الأسباب والظروف التي تحكمت فيها؟. وما هي الوجهات التي قصدتها بحثا عن الأمن والاستقرار؟

أسباب الهجرة الجزائرية.

بدأت هجرة المسلمين منذ سنوات الاحتلال الأولى فمنذ سنة 1832 توجهت طائفة من المهاجرين نحو بلدان المغرب العربي بسبب اضطهاد فرنسا لهم، وقد تضافرت عدة عوامل (داخلية وخارجية) لخلق ظاهرة الهجرة.

1- الأسباب الداخلية:

أ)- الأسباب السياسية والعسكرية: ولعل أهمها:

- رفض الجزائريين العيش في ظل النظام الاستعماري الذي اشتدت وطأته أكثر عليهم منذ 1870 في عهد الجمهورية الفرنسية الثالثة من خلال ترسانة القوانين الظالمة والردعية العنصرية كقانون الأهالي 1881 (وهو مجموعة من النصوص القانونية الاستثنائية والإجراءات الصعبة التي بدا الاستعمار في تطبيقها على الشعب الجزائري منذ سنة 1874 وهي تخول السلطات الإدارية حق معاقبة الجزائريين على العديد من المخالفات المنصوص عليها في القانون وهو واحد من عشرات القوانين المسلطة على الجزائريين أثناء فترة الاحتلال..
- إقامة المحاكم الردعية سنة 1902 (التي عملت على استعباد الشعب الجزائري وحرمانه من ابسط الحقوق والحريات السياسية).
- قانون التجنيد الاجباري 1912 مما بألاف الجزائريين الى مغادرة وطنهم نحو البلدان العربية... وغيرها.

- فشل المقاومات الشعبية المسلحة، وما تبعها من اجراءات انتقامية للإدارة الاستعمارية جردت الجزائريين من أموالهم وأراضيهم وحقوقهم السياسية والمدنية، ودفعتهم إلى التفكير في ترك الوطن للمستعمر.

وهذا ما يقودنا للاستشهاد بقول الكاتب الفرنسي مرسيي Mercier الذي يقول:" *إن الحياة الاستعمارية الجديدة من بين الأسباب التي قادت إلى الهجرة الجزائرية، فقد كان ذلك يعني أنه لم يعد في استطاعة الجزائريين أن يتمتعوا بحياتهم القديمة كما كانوا سابقا*".

ب)- الأسباب الاقتصادية والاجتماعية: وتتمحور عموما حول:

- سلب الأراضي من أصحابها الشرعيين واستلاء المعمرون وأصحاب الشركات الكبرى عليها وكمثال على ذلك أصبح الأوربيون في الجزائر يمتلكون 24000،00 هكتار منها 1،7000،00 هكتار منزوعة الملكية، كما يملك 5،73منهم أكثر من 100 هكتار.
- عدم التعويض للأملاك المُصادرة، فسياسة الاستيطان، التي استمرت أكثر من قرن، أودت إلى تجريد الجزائريين من أراضيهم والعمل في مزارع المستوطنين، التي كانت من قبل ملكا لهم، وذلك مقابل أجور زهيدة لا تفي بضروريات الحياة.
- احتكار السلطات الفرنسية للتصنيع في الجزائر وذلك من اجل إبقائها تابعة للاقتصاد الفرنسي، إضافة إلى عدم قبول رجال الأعمال الفرنسيين استثمار أموالهم في الجزائر.
- تدهور مستوى المعيشة نظرا لفقد الجزائريين لأراضيهم وقطعان ماشيتهم وأمالكهم وانتشار الفقر والبطالة، وهو ما أجبر أعدادا هائلة على مغادرة قراهم، فتحولوا من ملاك ارضي إلى عمال زراعيين يستعبدهم المستوطنون، إضافة إلى ممارسة الإبادة والتشريد والنفي كجزء من السياسة الفرنسية الرسمية.
- كثرة وثقل الضرائب المفروضة على الجزائريين الذين كانوا يدفعون إلى جانب الضرائب العامة ضرائب خاصة بهم جعلتهم يدفعون أضعاف ما يدفعه المعمرون المترفون.
- تردي المستوى المعيشي مما أدى إلى انتشار المجاعات في سنوات 1893، 1897... وغيرها، وتفشي الأوبئة والأمراض الفتاكة كالكوليرا والتيفوس مما رفع من نسبة وفيات الأطفال الجزائريين بصورة مهولة بسبب المجاعة و غياب الراعية الصحية الضرورية.

ج- الأسباب الثقافية والدينية:

لقد قضت السلطات الفرنسية على العديد من المراكز التعليمية وذلك لطمس الهوية والشخصية وابعاد اللغة العربية عن الحياة العلمية، لإحياء ثقافتها وتراثها الحضاري على أرض الوطن، (وقامت بعملية توسيع تعليم اللغة الفرنسية، كما قررت إنشاء مؤسسات في عدة مناطق من أجل السيطرة على المؤسسات التعليمية وتثقيف الشعب بالثقافة الفرنسية، إضافة إلى محاربة الإسلام من خلال مصادرة الأوقاف) وتضييق الخناق على التعليم العربي بضرب المؤسسات التعليمية وحظر فتح المدارس والكتاتيب إلا بترخيص من الإدارة... فكانت الهجرة كمخرج أخير للجزائريين للحفاظ على عقيدتهم ومقوماتهم الشخصية، وقد لعب في هذا الصدد العديد من العلماء والفقهاء دورا في نفس الاتجاه والدعوة إلى الهجرة على قبول العيش تحت الإدارة الفرنسية وهو ما كان له انعكاس واضح على تسارع الهجرة.

2- الأسباب الخارجية :

هناك عدة عوامل أخرى شجعت على حركة الهجرة نحو المشرق العربي والإسلامي وكذلك نحو تونس والمغرب، ومن ذلك أن بعض الحضر (أهل المدن) كانوا من أصول مشرقية حيث أخذوا يحثون إخوانهم في الجزائر على الالتحاق بهم في الشام أو في اسطنبول أو في الحجاز (و كانوا يزينون لهم الإقامة هناك ويذكرونهم بمساوئ الحكم الاستعماري، ومن جهة أخرى فإن للمشرق سحره وجاذبيته في أذهان الجزائريين . ويظهر ذلك في ملائمة البيئة الثقافية والدينية واحتضانه أهم الأماكن المقدسة الإسلامية في مكة والمدينة والقدس، وأكبر منارات العلم كالجامع الأزهر بالقاهرة وجوامع أخرى في الشام والحجاز واحتفاظه باستقلاله عن الاستعمار الأوربي تحت راية الخلافة العثمانية) وتساهل السلطات العثمانية غالبا مع المهاجرين.

ومن بين العوامل التي شجعت الجزائريين إلى الهجرة نجد:

أ)- **صدى وأفكار الجامعة الإسلامية:** لقد تأثر الجزائريون بالحركة الإصلاحية وحركة الجامعة الإسلامية مما أوحى للجزائريين بوجود عالم أكثر حيوية وحرية في المشرق.

ب)- تأثير الصحافة المشرقية:

لقد لعبت الصحافة المشرقية دورا كبيرا في دفع عجلة النهضة الجزائرية من خلال اهتمامها ببعض قضايا المجتمع الجزائري ومحاربتها للاستعمار الفرنسي وسياسته التعسفية كما ساهمت في حث الجزائريين على مواصلة النضال الوطني، (فعلى الرغم من الواقع

الاستعماري الذي فرض على الجزائريين إجراءات تعسفية، بل تعدى إلى عزل الجزائريين عن العالمين العربي والإسلامي.، رغم كل هذه الصعوبات القاسية إلا أن هذا لم يحل دون اطلاّع الجزائريين على الإنتاج الفكري الإسلامي من خلال الصحف العربية والمشرقية، التي

كانت تصل إلى الجزائر عن طريق تونس والمغرب وكانت هذه الصحف تهرب من حقائب الحجاج كهدية.

ومن أهم هذه الصحف التي كانت تصلهم وتأثرت بها الصحف الناطقة بالعربية ومنها العروة الوثقى (وهي مجلة أنشأها جمال الدين الأفغاني مع محمد عبده موجهة للأمة الإسلامية داعيا فيها الأمة إلى التوحد) والمنار (التي أفردت أقسامًا لأخبار الأمة الإسلامية، والتعريف بأعلام الفكر والحكم والسياسة في العالم العربي والإسلامي، وتناولت قضايا الحرية في المغرب والجزائر والشام والهند.)، و"نور الإسلام" (وهي مجلة شهرية، وكان اسمها نور الإسلام، ثم غيِّر إلى مجلة الأزهر، وهي تصدر منذ عام 1349هـ (1930م)، من مصر الشقيقة وقد كانت الصحف المشرقية تدعو الجزائريين إلى فك القيود والتمسك بالهوية الإسلامية وتهاجم الفساد وأعداء الفساد وأعداء الإسلام من المستشرقين والنصارى.

لقد ارتبطت هجرة الجزائريين ببلاد المشرق أو الشام عبر تونس ثم القاهرة، اسطنبول، دمشق وبيروت، إذ كان الأمر يتعلق بتوجه المهاجرين لأداء فريضة الحج. إضافة إلى ذلك كان لدعوة الجامعة الإسلامية التي ظهرت على يد جمال الدين الأفغاني، ثم نداءات السلطان عبد الحميد الثاني تأثيرها الكبير على الجزائريين فكانت حركة الهجرة واسعة نحو المشرق.

وتعد الدعاية العثمانية السبب الرئيسي في هجرة الجزائريين إلى بلاد الشام وذلك عن طريق قيامها بإثارة الشعور الديني لدى مسلمي المستعمرات وخاصة المستعمرات الفرنسية وذلك عن طريق قنوات عديدة، ومنها الصحف التي كانت تصدر في الأقاليم العثمانية مثل "المعلومات" و"ثمرة الفنون" (ببيروت) و"الإسلام" (بالإسكندرية)، وكانت هذه الصحف تصل إلى الجزائر بسهولة.

وهناك سبب آخر ساعد على الهجرة وهو عمليات النفي والتهجير التي قام بها بعض الحكام الفرنسيين ومنهم "بوجو" (Bugeaud)عندما قام بطرد الأعيان والعلماء، فمنهم من نفي إلى سجون فرنسية ومنهم من حكم عليه بالطرد من الجزائر مع اختيار بلد آخر يذهب إليه.

3- اتجاهات الهجرة الجزائرية

غلب على وجهة الجزائريين المهاجرين اتجاهين رئيسين هما:

أ- العالم العربي والإسلامي:

يعد المشرق العربي أهم وجهة اختارها الجزائريون لهجرتهم قبل 1914 من أكبر وأعرق المدن الجزائرية (تلسمان، مليانة، المدية ، قسنطينة... إلخ)، وهذا لما يمثله المشرق من خصوصيات ودوافع دينية وحضارية مثل:

- وفرته على بيئة ثقافية ودينية ملائمة لمقومات الشخصية الجزائرية من لغة ودين وتقاليد اسلامية.

- بقاؤه تحت راية الخلافة العثمانية الاسلامية بعيدا عن السيطرة الاستعمارية الاوروبية الصليبية.

- تواجد المقدسات الدينية الاسلامية به كالحرمين مكة والمدينة المنورة في الحجاز والقدس في فلسطين إلى جانب وجود مراكز الاشعاع العلمية بمصر وسورية والعراق.

- تشجيع السلطان العثماني عبد الحميد الثاني (1876-1909) الجزائريين على الهجرة نحو أراضي السلطنة حيث أنشأ مكتبا مكلفا باستقبالهم.

ومن مناطق المشرق التي كانت قبلة للمهاجرين الجزائريين بلاد الشام و خاصة سورية التي وصلتها هجرات كثيرة من أشهرها هجرة جماعية من تلمسان ومليانة سنة 1911 قدر عددها بـ 1.200 عائلة أي حوالي 20.000 مهاجر وكان وجود الأمير عبد القادر واسرته بدمشق دافعا محفزا على الهجرة اليها .

ومنذ 1893 اصبحت الحجاز قبلة ثانية للهجرة الجزائرية باعتبارها مركزا روحيا بمقدساته الاسلامية فمثلا هاجرت اليه سنة 1895 حوالي 100 عائلة من بسكرة .

كما كانت البلدان المغاربية المجاورة قبلة عامة للهجرة، وامتدت الهجرات الجزائرية ايضا الى دول اسلامية كتركيا وإيران والهند.

ب- فرنسا بين الهجرة و التهجير :

لم تكن فرنسا وجهة رئيسية للهجرة الجزائرية قبل 1914، رغم أن الجزائر كانت ملحقة بفرنسا ترابيا ورسميا منذ 1934 وذلك للأسباب التالية :

- أنها تمثل أرض المستعمر الصليبي، وأنها بيئة غريبة لا تلائم قيم وعادات الجزائريين.

– وجود قانون منذ 1874/05/16 يقيد هجرة الجزائريين لفرنسا، إلا أن ظروف الحرب العالمية الأولى ألزمت فرنسا بفتح المجال للهجرة الجزائرية والتهجير نحوها بواسطة التجنيد الاجباري للجزائريين في الحرب وبعدها...

– واصدار قانون 1914/07/15 الذي يحرر وينظم الهجرة الجزائرية لفرنسا حتى بلغ عدد الجزائريين في فرنسا عند نهاية الحرب العالمية الأولى حوالي 270.000 منهم 173.000 جندوا في الجيش الفرنسي وشاركوا في العمليات العسكرية ومات الكثير منهم فيها .

الهجرة الجزائرية نحو فرنسا (1914– 1918)

السنة	عدد المهاجرين (بالألف)
1914	7.444
1915	20.092
1916	30.755
1917	34.985
1918	23.340

5– النتائج المختلفة للهجرة الجزائرية :

لقد ترتبت عن الهجرة الجزائرية الخارجية والتهجير جملة من النتائج منها ما هو سلبي ومنها ما هو ايجابي.

أ– النتائج السلبية:

– لقد احدثت عملية الهجرة و التهجير نزيفا بشريا للجزائر فتركت فراغا بشريا للطاقات الحية مما اضعف حركة المقاومة من جهة وسهل تجسيد مشروع الحلم الاستيطاني الأوروبي في الجزائر حيث تضاعف عدد السكان الأوروبيين بالجزائر كثيرا.

– أدت إلى هلاك العديد من الجزائريين خاصة منهم المهجرين قسرا للدفاع عن فرنسا في الحرب العالمية الأولى و من خيرة شباب الجزائر و الطاقات الحية للشعب الجزائري.

ب– النتائج الايجابية للهجرة الجزائرية:

إن تواجد الجزائريين في الخارج كان كبيرا خلال الفترة الزمنية الصعبة التي بلغ فيها الاضطهاد الاستعماري الفرنسي الجمهوري قمته لأسباب اقتصادية وعنصرية ودينية. ولم تكن هجرة الجزائريين خارج بلادهم ارادية وطوعية وذاتية بل كانت في غالب الأحيان قسرية

وقهرية وقد ظلوا ولا يزالون اينما وجدوا مرتبطين روحيا بوطنهم ومهمومين بهمومه ومساهمين بما هو متاح لهم في نهضته وتحريره.

– تعاظم الثقافة والوعي بفعل الاحتكاك بشعوب وثقافات عديدة متطورة وتعمق الحنين للوطن والغيرة عليه والدفاع عنه والتعريف به وبقضيته العادلة في المحافل المختلفة.

– اكتساب الجزائريين لخبرات عملية وعسكرية بوجودهم في الجيش الفرنسي طويلا، وظفت فيما بعد في مجال النضال الوطني فالأمير خالد حفيد الأمير عبد القادر الجزائري، ومصالي الحاج كانوا من الضباط العسكريين قبل أن يبادروا إلى العمل السياسي النضالي.

– إسهامهم في ضمان العيش لعائلات كبيرة في الوطن بما كانوا يرسلونه من أموال وحوالات شهرية لعائلاتهم في الوطن. فالهجرة الجزائرية ماضيا و حاضرا خدمت الوطن وشرفته.